
عظماء قهروا اليأس :
مصطفى كامل
يوسف الحمادى

عظماء قهروا اليأس

مصطفى كامل

بقلم

يوسف الحمادى

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

(١)

مولد مصطفى كامل وطفولته الباكرة

أهلَّ الطفلُ بطلعته على أسرتـه ، ونشأ بينها نشأةً يظلّلُها الحب والتقدير والحنان .. لم يكنْ « على محمد » والدُ الطفل من الوجهاءِ ولا الأثرياء ، وإنما هو ابن رجل ريفى من « كتامة الغاب » ، بمديرية الغربية ، كان يعملُ بالتجارة ، ويعتمدُ فى حياته على ما تأتى به من ربح ، وهيّأت له هذه التجارةُ أن يجدَ كفايته من الرزق ، وأن يبعث بابنه ـــ على محمد ـــ والد الطفل ؛ ليتعلم فى المدارس الهندسيةِ العسكريةِ التى أنشأها والى مصر « محمد على باشا » الكبير فى بلدتَىْ « طرة » و « الخانكة » ، وليتخرجَ فيها مهندساً ، يعملُ فى صفوف الجيش ، ويعيشُ على راتبه منه ، ولم تكن أمُّ الطفلِ من سليلاتِ المجد والغِنَى ، وإنما هى ابنةٌ تقية طيبة ، لضابطٍ مصريٍّ يعمل فى الجيش أيضا .

وكانت أسرة الطفل تعقدُ أملا كبيراً بوظيفة الوالد ، وما تُدِرُّه عليها من المال ، ولكن الأيامَ تقلَّبت بهذا الوالد ؛ فقد انتظـم فى العمـلِ العسكرىّ على عهد « عباس باشا الأول » ؛ حتى ارتقىَ إلى رتبـةِ « اليوزباشى » ، ثم انكمش عددُ الجيش على يد هذا الوالى ، وجاء عهدُ « سعيد باشا » ، فَحُوِّل إلى مَعِيَّته ، ثم أدركه عهدُ « إسماعيل باشا »

بويلاته ، وتعصُّبِه للشركَس ، وحقدِه على من كانوا يعملونَ مع « سعيد » ، فأُحيلَ المهندسُ « على محمد » إلى الاستيداع ، وهو فى عُنْفُوَانِ حياته ..

وألقت به الأيامُ أخيراً إلى نظارةِ الأشغال العموميةِ ، ليعملَ فيها بين المهندسين المدنيِّين ، ولينهضَ بعبءِ أسرةٍ ضخمة له ، عِدَّةُ أفرادِها تسعة من زوجتين ، سبعة من البنين وبنتان .

كذلك كان حالُ الأبوين .. لم ينشأ الطفلُ بينهما وفى فمِه مِلعقةٌ ذهبيةٌ أو فضية ، ولم يجد الطريقَ أمامه مفروشاً بالورود أو الرمال ، ولكنه وجد نفسه فى لونٍ من العيش ، لا يرتفع إلى درجةِ الأغنياء الموسرين ، ولا يهبطُ إلى درجةِ الفقراء المُقْتِرين(١) ، وإنما هو فى منزلةٍ وسطٍ بين هؤلاء وهؤلاء .. ولكنَّ ما وجده من حبٍّ أبويه وتقديرِهما كان كبيرا ، وما لَقِيَه من رفقهما به وحنانِهما عليه كان أكبر ، فنشأ منذ طفولتِه الباكرة بين الحبِّ والعطفِ ، والاعتزازِ والحنان .

أحسَّا أنهما أمامَ طفلٍ متميز ، ليس كغيرِه من الأطفال .. فله وجهٌ مضيءٌ ، صبوحٌ ، مفتوحُ الجبهة ، متلائمُ الأجزاء والتقاسيم ، تشعُّ عيناه بنورٍ هادئ ، وتنطلق منهما نظراتٌ نفَّاذة ، بها ذكاءٌ وحِدَّةٌ وتصميم ، وفيها بهاءٌ وقوةُ تأثير .. وله عقلٌ أكبرُ كثيراً من عقولِ الأطفال فى مثل سنه ، فهو يعى ما يدورُ حوله أكثر مما يعون ، ويفهمُ الأحاديثَ التى تلتقِطُها أذنُه أكثرَ مما يفهمون ، بل كان أبوه يحسُّ ، غيرَ مرة ، أن النظرةَ تكفيه ، وأن الإشارةَ توجهُه إلى ما يُرادُ منه .

---

(١) المقترين : الذين يعانون ضيق العيش .

وكانا يريان أنه ـ مع صِغَرِه ـ شديدُ الشعور بنفسِه وشخصيتِه ، يتمسكُ برأيه ، ويوضحُ وجهتَه فيه ، ويدافعُ عنه فى صلابةٍ وعناد ، ولا يتراجعُ إلا بعد الحوارِ والاقتناع ، وأنه يعتزُّ بكرامتِه وكبريائه ، فلا يحبُّ أن يدلَّلَه أحد كما يدَلَّلُ الأطفال ، ولا يتقبلُ اللفظةَ الجارحةَ كما يتقبلون ، ولا يستسيغُ[1] التصرفَ الذى يقللُ من كبريائه أمامَ نفسِه كما يصنعُ غيرُ قليلٍ منهم ..

كان أبواهُ يريان ذلك منه ، فيشتدُّ حبُّهما له ، واعتزازُهما به ، وكانا يدركان أنه أصغرُ أولادِ الأسرة ، وأنه ـ مع ذلك ـ نحيلُ الجسم ، دقيقُ التكوين ، مرهَفُ الصحة ، ضعيفُ الاحتمالِ ، فيشتدُّ إشفاقُهما به ، وعطفُهما عليه .

وكثيراً ما كانا يقفان من ذكائِه ، وتصميمِه وصلابتِه موقفَ الدهشةِ والإعجاب ، وكان كلٌّ منهما يحدثُ صاحبَه بأن طفلَهما غيرُ عاديٍّ ، وأن ملامحَه تدلُّ على أنه سيكون ذا شأنٍ ومكانة .

هذا الطفلُ هو « مصطفى كامل » الذى صار ـ فى مستقبل حياته ـ من زعماء مصر المعدودين .

وُلِد فى الرابعَ عشرَ من أغسطس سنة ١٨٧٤ ، وكان مولدُه فى بيتِ أسرته ، بدرب « الميضة » ، فى شارع الصليبة ، بحيِّ الخليفة ، أحد أحياء القاهرةِ المعروفة .. ولم يكن البيتُ الذى وُلِد فيه فخماً ولا رائعاً ، ولكنه بيتٌ واسع ، فسيحُ الحجرات ، ظهرت ثقافةُ أبيه الهندسيةُ فى اختيار أثاثه وتنظيمه ..

---

(١) لا يستسيغ : لا يتقبل .

استقبل البيتُ هذا الطفلَ ، وفيه حَبَا ، ودرَج ، ثم نَما وتطوَّر نموّه ، ووجد فى أبيه الوالدَ والصاحبَ والرفيق ، والرجلَ الملتزم الذى يحافظُ على وقتِه ، ونظامِ حياتِه ، وجمالِ مظهره ، واختيار أصدقائِه ، ويُعْنَى غايةَ العناية بتثقيفِ عقله ، والإشرافِ بنفسه على تربيةِ أولادِه ، وإعدادِهم للحياةِ إعداداً ناجحا . ووجدَ فى أمِّه الأملَ الذى يُسْعِدُه ، والدافعَ الذى يلهبُه ؛ بما اتصفت به من الصلاحِ ، وعلوِّ الهمّة ، وقوةِ الإرادة . وقد أخذ الطفلُ من أبويه أحسن صفاتهما النفسيةِ والاجتماعية ، وزاد عليهما كثيراً فى طموحِه ، وصلابتِه ، وإصرارِه على تحقيق أهدافه ، ولم تُعوزْه(١) نزعةٌ ريفيةٌ أصيلة ، سرت إليه من أجداده ، فى « كتامة الغاب » ، وغرست فيه صراحةَ القرويِّ ومسالمَته وحميَّته ، كما عمَّقَت فيه رُوحَ الرحمةِ بالفقراء والإحساسِ بآلام البائسين .

ووجد فى أسرتِه بيئةً صالحةً لغرس بذورِ الوطنية فى نفسِه منذ صغره ؛ فقد تفتحت أذناه على الأحاديثِ الهامسة التى كانت تدورُ بين أبيه وأصحابه ، وتتناول أنباءَ « إسماعيل » الطاغية ، وحياتَه اللاهيةَ العابثة ، وتبديدَه لأموال الشعب ، وحكمَه بالحديد والنار ، وفَتْحَ الطريق للأجانب وفى مقدمتهم الإنجليز .. كما تتناولُ سُخْطَ الجيشِ عليه ، وحركتَه السريةَ التى ينظِّمُها الضباطُ الأحرار لمقاومتِه ، وعلى رأسهم البطلُ العظيم الجرىء أحمد عرابى . وكان الحوارُ يقفُ طويلا عند عسفِ « إسماعيل » بالضباطِ المصريين الذين عملوا مع « سعيد » والى مصر قبلَه ،

(١) لم تعوزه : لم تفته .

وإحالتِهم إلى الاستيداع ، ومنهم المهندسُ « على محمد » والد الطفل . ومن الأحاديثِ التى كانت تتكررُ:الحديثُ عن حركةِ الضباط الذين تظاهروا فى وزارةِ المالية سنةَ ١٨٧٨ على وزيرِها الإنجليزىِّ ورئيسِ وزارتِها « نوبار » ، وطالبوا برواتبهم ، وهجموا على « نوبار » ، وانهالوا عليه ضرباً ولكما ، فى جرأةٍ لم تعرف البلادُ مثلَها فى عهودِ الاستبداد والطغيان .

كان الطفلُ يسمعُ ذلك وما يشبهُه ، وهو فى الخامسةِ من عمره أو يزيدُ قليلا عليها ، ولم يكن عقلُه الصغيرُ يعى ذلك كلَّه ، أو يعرفُ خفاياه وأسرارَه ، ولكنه كان يلتقِطُ شيئاً منه ويفهمُ بعضَه بالإشارةِ ، أو النظرة ، أو تعبيرِ الوجه ممن يتحدثون ، وكان أرسخَ ما استقر فى قلبه مبكراً اسمُ مصر وحبُّ مصر .

ولم يكن أبوه يغفل عنه وعن إخوتِه .. فقد اعتادَ أن يجمعَهم بعد العِشاء ، ويحكىَ لهم كلَّ ليلةٍ حكايةً من تاريخ مصر ، أو يلقِىَ عليهم حديثاً مما يتصل بحياتِها ، وقد يطولُ ما يحكى أو يقصُر ، وأولاده يستمعون ، أو يناقشون ، أو يستفسرون ، وهو يجيبُ فى حبٍّ وصبر . وكان الطفلُ يستمعُ كإخوتِه وأخواتِه ، ولكنه كان أشدَّهم إصغاءً لِما يُلْقِى الأب ، وأحرصَهم على فهم ما يتسِعُ له عقله ، وربما فاقَ مَن يكبُرُه منهم فى الفهمِ ، وتفسير ما فهِمَه .. وقد كانت هذه الأحاديثُ والحكاياتُ مدداً يغذِّى يوماً بعد يومٍ حبَّه لوطنِه وبلادِه .

وكثيراً ما دخل الطفلُ على أبيه ، وهو فى مكتبه ، ورآه يتصفَّح كراسات « يومياته » ، وكانت تسجلُ ما مرّ به من ذكرياتٍ ، حلوةٍ ومرّة ، هادئةٍ وعنيفة ، سارّةٍ ومحزنة ، ومن هذه اليومياتِ ما اتصل بحياتِه الشخصية ، ومنها ما اتصلَ بحياة الوطن أو المجتمع أو الحكم فى مصر ، وكثيرا ما أسرعَ نحو والِده ، بدافعٍ من حب الاستطلاع الذى عُرِفَ به ، يسألُه عما يقرؤُه ، أو يراجعُه ، أو يفكرُ فيه ، وينتهزُ الوالدُ الفرصة[1] ، ليبادرَ بالإجابة ، وهو فى أشدِّ الإعجابِ بنجابةِ ابنه ، وذكائه ، وقدرته على وعيِ ما يُلْقَى إليه ، وفهمِ مغزاه .. وحفزَه ذلك إلى حبِّ التاريخ ، والرغبةِ فى دراستِه ، وفى تعرُّفِ خفاياه وأسراره .. ولم تترك الأمُّ ابنَها ، بل كانت تشجعُه على الاستزادة ، وتدفعُ أباه أن يُشْبِع رغبتَه الملحَّةَ فى الاطلاع ، ونَهمَه الشديدَ به .

(١) ينتهز الفرصة : ينهض إليها لينتفع بها



الطفل فى مكتب أبيه يحاوره
وعلى المكتب مجموعة من الكراسات والكتب

(٢)

دراسة الطفل

تجاوز الطفلُ « مصطفى كامل » الخامسةَ من عمرِه ، فراح أبوه يُعِدُّه للحاق بمعاهدِ التعليم على أساسٍ صُلبٍ متين .. أحضر له مدرسًا يعلمُه فى المنزل القراءةَ والكتابةَ والإملاءَ وأساسياتِ الخط والحساب ، فتعلمَ الطفلُ منها قدراً صالحاً فى زمنٍ وجيز .. وأحس الأب ذلك ، فنقله إلى معلمٍ يتولى تحفيظَه ما يستطيعُ حفظَه من القرآن الكريم ، وأُعجِبَ به هذا المعلمُ أشدَّ الإعجاب ؛ لأنه وجد نفسه أمامَ طفلٍ ، يصحُّ أن يسمَّى : «الطفلُ المعجزة » ؛ لسرعة حفظِه ، وحِدَّةِ ذاكرته ، ومقدرتِه الفذة على الانتباهِ والتركيز ، وشدةِ حرصه على السبقِ والتفوقِ فى دراسته ، ويذكر بعض المؤرخين أنه أتمَّ حفظَ القرآنِ الكريم ، وهو فى نحوِ السابعة ، وربما كان فى ذلك شىءٌ من المبالغة ، ولكنه دليلٌ واضحٌ على نبوغِ الطفل وبراعتِه .

ووقَفَ الأبُ فترةً قصيرةً وهو حائرٌ : أيبعثُ به إلى المعاهدِ الأزهرية أم يمضى به نحوَ المدارس الأميرية ؟ ولكن الطفلَ حسمَ الموقفَ بميلِه الشديد إلى الرياضيات .. ودخلَ مدرسة «أم عباس» الابتدائية ، وقضَى بها فترةً قصيرة كان فيها بارزاً بين زملائه ، مقدَّراً من أساتذتِه وناظر

مدرسته ، ولكنَّ أحدَ المدرسين تجاهلَ شخصيتَه وكبرياءَه ، فصمم أن يتركَها . دخل على أبيه وهو فى التاسعة ورجاه أن ينقُلَه إلى مدرسةٍ أخرى ، ولكن الوالدَ تعجَّب ، وغضِبَ ، وقال :

ـــ إن الولدَ الذى يدخُلُ مدارسَ عدةً قبل أن يُقَوِّمَ عملَه قَلَّ أن ينجح .

فـرد :

ـــ صدقتَ يا والِدِى ، وكذا الولدُ الذى يتحملُ الذلَّ لا يكونُ شجاعاً أبداً .

ـــ ماذا حدث ؟

ـــ لقد سأل الأستاذُ صباحَ اليوم أحدَ التلاميذ ، فتلكَّأَ فى الرد ، فأجبتُ بدَلا منه ، فسبَّنى الأستاذ ، وحبسنى ساعتين ، وهذا ظلمٌ لا أرضاه لنفسى ، ولا شك أنك لا ترضاه لى كذلك .

ـــ ألم أقُلْ لك : إن من دخلَ فيما لا يعنيه سَمِع ما لا يرضيه .

ـــ إنى أعقِلُ هذه النصيحة ، ولكنى خشِيتُ أن يفوتَ الوقتُ بين اعتذار التلميذ الكسلان ، وحسابِ الأستاذ العسير[١] ، وفى هذا غبنٌ لحقوق التلاميذ جميعا ، ثم إن الأستاذَ عاقبنى عقابين على ما يعتقد أنه ذنبٌ واحد ، وهما السبُّ والحبس ؛ ولذلك أرى أنه تعدَّى حَدَّه ، ولا أستطيعُ أن أصبرَ على هذه الإهانة ؛ فإنى لا أحبُّ أن أكونَ فى مدرسةٍ أحدُ أساتذتِها على ما ترى يا والدى من الجَوْرِ والاستبداد .

رأى الأبُ تصميمَ ابنه ، وبحث الأمرَ مع المدرسة ، فتأكدَ له صدقُه ،

(١) العسير : الصعب .

فنقله إلى مدرسةِ « السيدة زينب » ، وكان ذلك سنةَ ١٨٨٣ ، ودلَّ هذا الحوارُ على الكثيرِ من صفاتِ الطفل التى تركت أعظم الأثر فى حياته . دلَّت على شجاعتِه الأدبية ، ودقةِ تفكيره ومنطقِه ، وبراعتِه فى الحوار وانطلاقِه فيه ، وصلابتِه فى الإقناعِ وقدرتِه عليه ، وكراهتِه للاستبداد والظلم ، وحرصِه على الوقت ، ودفاعِه عن حقوق غيرِه ، وإبائِه للإهانةِ ولو كانتْ من معلمه ، وأهَّلَتْه هذه الصفاتُ ، مع ما عرفت من صفاتِه الأخرى ، إلى أن يُصْبِحَ فى مستقبلِه زعيماً يتحدى الظلم ، ويقاومُه أشدَّ المقاومة .

قضى الطفلُ فى مدرسة « أم عباس » ، وفى مدرسة « السيدة زينب » أكثرَ سنوات دراستِه الابتدائية ، وفى هذه الفترةِ وقبلَها بوقتٍ قصير وقعت أحداثٌ سريعة متزاحمة ، ألهبت حبَّه لمصر ، وكراهتَه لأعدائها وفى مقدمتهم الإنجليز . سمِع وهو فى السابعة بحركةِ « عرابى » أمامَ قصر عابدين فى التاسعِ من سبتمبر سنة ١٨٨١ ، ورأى فتيانَ « الصليبة » ، والخليفة جميعاً يسارعون — كما يسارع غيرُهم — إلى هذا القصر ، ولعله تمنى أن يكون بينَهم ، ولكن جسمَه الصغير الضعيف منعه أو منع أسرتَه أن تتركه يغرَقُ بين الأمواجِ البشرية التى تدافعت إلى هناك .. وصفَّق حتى ألهب كفيه ، كما صفَّق الكِبارُ والصغار بانتصار الجيشِ ، وخضوعِ الخديو توفيق له ، وموافقتِه على مطالبِه ، ورأى الجموعَ هنا وهناك تهتف بحياةِ « عرابى » وجيشِه ، وتسمِّيه « البطل » و « المنقذ » و « ابن مصر البار » ، فأحسَّ الفرحةَ به ، والزهوَ بثورته ، وودَّ لو كبِر وصارَ مثلَه ، ولكنه عاد

فرأى الحيرةَ فى عيون الناس ؛ لمراوغةِ الخديو ، ومعاداتِه لعرابى ، وانحيازِه إلى الإنجليز ، وسمِع الكثير عن خداعه ومكره .

وكانت الصدمةُ أشدَّ بعد ذلك بشهورٍ ؛ فقد ضربوا الإسكندريةَ من البحر فى يوليه سنة ١٨٨٢ ودخلوا البلاد ، فاشتبك معهم عرابى فى حربٍ ضاريةٍ دوَّخهم فيها ، ولم ينتصروا عليه إلا بخيانةِ « الخديو » ، ونفرٍ ممن يدَّعونَ الانتسابَ إلى مصر ..

وبدأ الطفل دراسته فى مدرسةِ « أم عباس » وجنودُ الاحتلالِ الإنجليزىُّ يجوبون القاهرة ، ومنظرُهم يؤذى عينيه ، ويؤلِمُ نفسه .. وانتقل إلى مدرسةِ « السيدة زينب » ، وألمُه يشتد ، ونفسُه تتمزَّق ؛ مما يسمعُ من أبيه وزوارِه عن عدوانِ هؤلاء الغاشمين ، والخداعِ بعضِ المصريين بوعودهم ، ولكن الكلام صار همسا بعد أن كان يرتفع ويدوِّى .

وفى هذه الأثناءِ كانت أقاصيصُ البطولة التى يرويها أبوه له ولإخوته لا تتوقَّف ، وكان يرى فيها حبَّ الوطن ، وروحَ الكفاح فى سبيله ، والتضحية من أجله . ومع هذه الأقاصيص استطاع أن يختلسَ بعضَ وقتِه ؛ ليجلسَ فى مكتبِ أبيه ، ويقلِّبَ يومياتِه ، ويقرأ ما يستطيعُ منها ، فتزيدَه معرفةً بتاريخ بلاده ، ووعياً بأمجادها ، وأسًى لما أصابها .. وكانت أمُّه تلمحُ ظواهِرَ العظمة والجد والحماسة فى ابنها ، فتشجعُها وتنمِّيها فى نفسه بنصائحها وتوجيهاتها ..

سأل أباه يوما :

— متى نتلقَّى فى المدرسةِ مثلَ السير التى تقصُّها علينا ؟

فأجابه :

— فى المدرسة دروسُ التاريخ ، وفيه تتعلم الكثيرَ من عزَّةِ ذوى النفوس الكبيرة ، وذلَّةِ الضعفاء المتهافتين(١) .

فانطلقَ يطلب ما يشبِعُه منه ، وكان قد عرف شيئا عن « عرابى » وأبطال حركتِه من أمثال علِى فهمى ، وعبد العال حلمى ، والشيخ محمد عبده ، والسيد عبد الله النديم ، كما عرفَ شيئا عمن جَنَوْا على مصر ، من أمثال « إسماعيل » و « توفيق » ، وأذنابهم ، وفتحوا نوافذها وأبوابها للإنجليز .. وبادر إلى أستاذِه ، وهو فى السنة الثانية بمدرسة « السيدة زينب » ، وعمره عشْرُ سنوات ، وسأل هذا الأستاذ :

— لماذا لا ندرسُ التاريخَ لنستفيدَ من دراستِه بما لا يستفادُ من غيره ؟

فأجابه :

— إنكم الآن مبتدئون ، ولكلِّ سِنٍّ تعليم ، والتاريخ يحتاجُ إلى إدراكٍ كبير ، وعقلٍ راجح ؛ لأنه مجموعة متشابهةٌ الأسباب والنتائج ، وميدانٌ فسيح لصورٍ عدة .

فرد مصطفى كامل :

— يظهرُ أن هذه المدرسةَ صغيرةٌ أكثرَ مما كنا نتصور ؛ لأن عقولَنا تفهم كلَّ شيءٍ فيها ، وقد تعلمت قصصاً كثيرة ألقاها علىَّ والدى ، وكنت أفهمُ ما فيها من المغازِى النافعة .

انتفض المدرسُ غاضباً ، وصمم على تأديبِ هذا التلميذِ الجرىء

---

(١) المتهافتين : المتساقطين المنحطين .

اللاذعِ فى نقدِه ، ولكن الصبىَّ رفضَ ما هدَّد به المدرس ، وترك الفصلَ محتجًا ، وتدخَّل بعضُ المدرسين فأصلحوا ما بينهما .

ومضى الصبىُّ فى دراستِه ، وانتقل إلى السنة الثالثةِ ، وبدأ يدرسُ التاريخ ، ولكنه وجدَ الاحتلالَ الإنجليزىَّ قد مسخه كما مسخ كثيراً من الحقائق ؛ كى يوجهَها لخدمته ، فتحوَّل إلى كتب التاريخ الأصيلة ، يقرأُ ، ويفكرُ ، ويتدبَّر .. وراح يسأل نفسَه فى عمق : لماذا لم تنجحْ ثورةُ البطلِ الكبير « عرابى » ؟ وهل تصمُتُ مصر بعده ؟ وهل يُخْلِفُ الإنجليز وعودَهم ويبقَوْن فى مصر ؟ ولماذا يقفُ بعضُ المصريين منهم موقفَ المسالمة واليأس ؟ ومَنْ ذلك الزعيمُ المنتظرُ الذى يَهُبُّ ، فيقفُ فى وجوههم ، ويُزِيحُهم عن أرض مصر ؟

وكثُرَت الأسئلة ، واشتدَّت المرارة فى حلقِه مما يرى من آلامِ الاحتلال وركودِ المصريين ؛ حتى مَرِضَ ولزِم الفراش وقتاً طويلا .. ولكن عقلَه لم يَكُفَّ عن التفكيرِ فى الإجابةِ عن هذه الأسئلة ، ولعل الجوابَ الذى بدأ يلوحُ لخاطره : « أن يُعِدَّ نفسَه لإنقاذِ مصر مما تردَّت فيه » أو يحلم بذلك .

واقترب الصبى من نهاية دراستِه الابتدائية ، عندئذ اصطدم فجأةً بموتِ أبيه سنة ١٨٨٦ ، فحزِن لموتِه أشدَّ الحزن ؛ لأنه كان يرى فيه الوالدَ والصاحبَ والنورَ الذى يهديه على طريقِ حياةٍ ملؤُها الأشواكُ والعقبات ، ولكنه لم يكنْ يعرفُ اليأسَ ، ولا يستسلمُ له ، ولم تكن أُمُّه التى عُرِفَت

بصلابتها تسمحُ له بذلك ، ولا يسمحُ به أخوه لوالده « حسين واصف » كبير الأسرة بعدَ أبيه ؛ فقد أسرعَ ، ونقله إلى مدرسة « القِرَبية » ؛ ليكون قريباً من بيتِ جدِّه لأمه ، بعد أن انتقلت إليه هذه الأمُّ وأقامت به ..

وجاءت سنةُ ١٨٨٧ ، وقد حصل الصبيُّ على الشهادةِ الابتدائية ، وكان فيها من الممتازين المتفوقين .

(٣)

دراسته الثانوية والعالية

أقامت نظارةُ المعارف حفلا فى دارها لمن حَصَلُوا على الشهادةِ الابتدائية حضره « الخديو توفيق » ، ورجالُ قصره ، ووزراؤه .. واختِير الصبىُّ مصطفى كامل لإلقاء كلمةِ المدرسة ، فألقاها ، وكان رائعاً فى إلقائِه لها ، وقُدِّم إلى « الخديو » ، فسأله :

ــ ما اسمك يا بنىّ ؟

فأجاب :

ــ اسمى مصطفى كامل . (همس ضابط المدرسة فى أذنِه مضطربا ، قل : « عبدُك مصطفى كامل » ، فلم يقُلْها) .

ــ وكم عمرك ؟

ــ اثنتا عشرةَ سنةً يا صاحب السموّ .

ــ وما اسم أبيك ؟

ــ على محمد فهمى الضابط . (فعاد الضابطُ يهمِس فى أذنه : قل : « عبدك » ، فلم يلتفت إليه) .

ــ فتح الله عليك يا بنىّ .

ــ شكرا للأمير العظيم .

وانتهى الحفل ، وغادر الخديو دارَ الوزارة ، والتقى الضابطُ بالصبى عاتباً ، ولكنه جابهه بقوله :

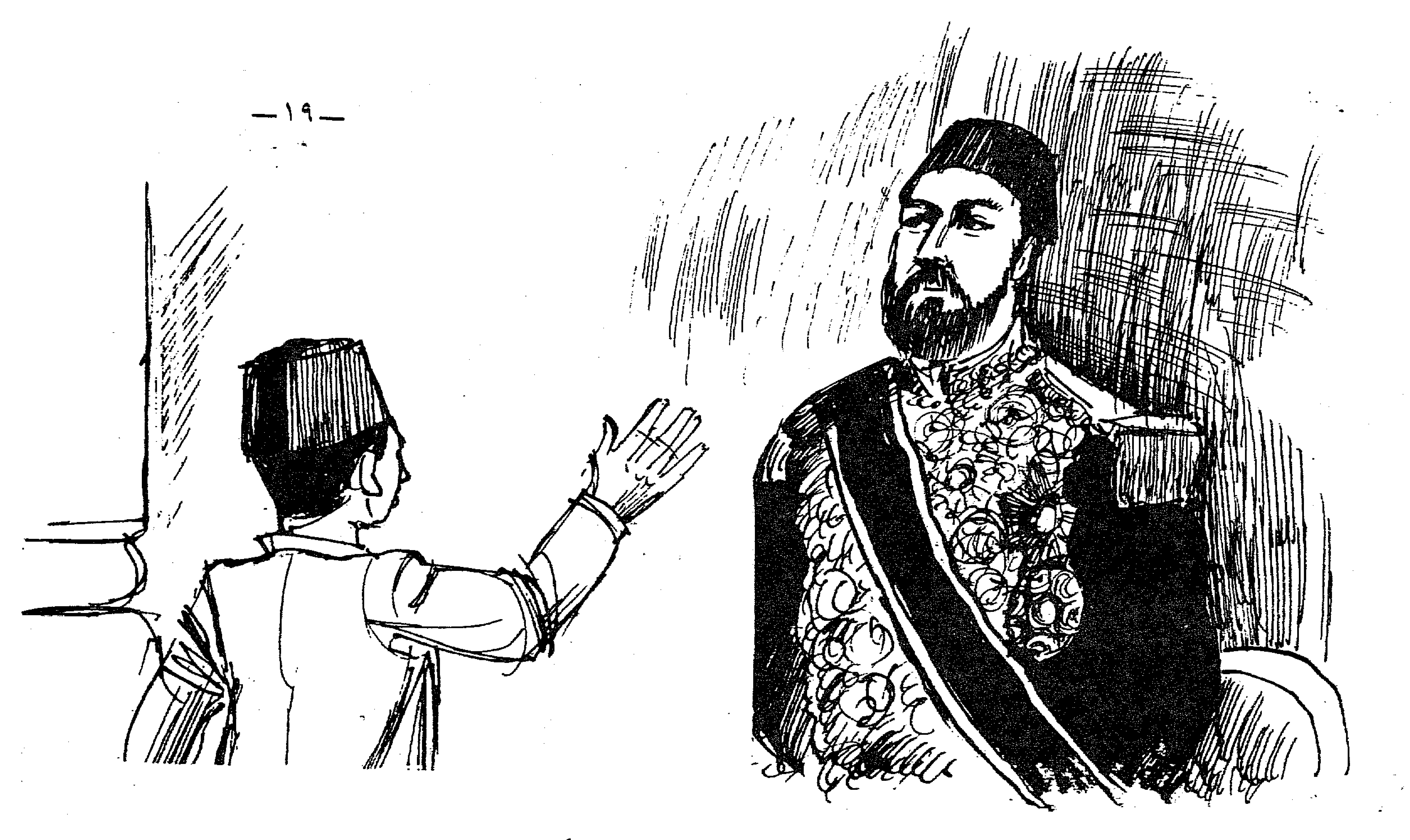
ــ لم يكن أبى عبدا لأحد ، وما كنت كذلك ، ودلّت كلماته على شجاعته ، وكراهتِه للعبودية ، وترفّعه عن الذلةِ حتى لِأكبرِ رأسٍ فى البلاد .

انتقل الصبىُّ إلى المرحلةِ الثانوية ، ودخل المدرسةَ الخديويةَ بدربِ الجماميز بالقاهرة ، بها قضى سنواتِ الدراسة لهذه المرحلة ، وفيها بدأ يحدِّدُ غايتَه وطريقَه إلى هذه الغاية ، ولعله سأل نفسه وهو فى هذه السنِّ الباكرة : ماذا أحبُّ أن أكونَ فى مستقبلى ؟ وكان الجواب فى غير تردد : أحبُّ أن أكونَ مدافعا عن بلادى مكافحاً لإسعادها ، ثم عاد فسألها : وما الطريقُ إلى ذلك ؟ وكان جوابُها : أن تُعِدَّ نفسَك إعداداً صالحاً لهذه المهمة .. وقد دفعه إلى مثلِ هذه الأسئلةِ حبُّه القوىُّ لمصر ، وكراهتُه الشديدةُ لمنظر الإنجليز ، وهم يدنِّسُون أرضَها الطاهرةَ باحتلالِهم لها ، ويخنُقُونَ حريتَها ، ويغتصِبُون خيراتِها ..

ولم يضيع الصبىُّ الصغير وقتا ؛ فقد أقبلَ على الدراسةِ فى نهم[1] ، يزودُ نفسَه بكل ما يستطيع من الموادِّ التى تقدِّمُها المدرسة ، ويزيدُ عليها فيقرأ ما يتسنَّى له من تاريخ الشعوبِ وقصصِ البطولةِ وألوانِ الثقافة .. وانطلق يتقدمُ المسيرة بين زملائِه ، ويجدُّ فى دفعِ الظلم عنهم ، ومهَّدَ بذلك للزعامةِ التى كانت تفتحُ له ذراعيها ، وتنتظرُه فى مستقبلِ حياته .

---

(١) نهم : رغبة شديدة .



مصطفى كامل ، وهو فى سن الثانية عشرة ، يخطب أمام الخديو توفيق

نظر ، فوجد نظامَ الامتحان مُجْحِفاً ظالما ، ورأى زملاءَه يتصايحون سُخْطاً عليه ولا يصنعون شيئا ، فتقدَّم للدفاع عنهم ، وذهبَ إلى نظارةِ المعارف ، وكان ناظرُها فى ذلك الوقتِ « علِى باشا مبارك » ، وحاول الحاجبُ أن يمنعَه من مقابلتِه ، ولكنه أذهلَه بلباقتِه وسرعة بديهتِه ، فقد قال له : « ويحَك ! إننى ابنُ الباشا ! » ، فارتجفَ الحاجبُ وتراجعَ ، ودخل الصبىُّ وهو يقول : « نعم : إننى ابنُ الباشا فى العلم » ، وتنبَّه علِى مبارك من استغراقِه فى عمله ، وسأله وهو بين التفاتةِ لوم ونظرةِ إعجاب :

ـــ وما الذى جاء بك إلى هنا يا بُنَىّ ؟

فأجابه :

ـــ حبُّ الحقيقةِ والعدل .

فرد الناظر :

ـــ لو كنتَ تعرفُ الحقيقةَ والعدلَ لظلِلْتَ فى فصلِك ؛ لتستمعَ إلى شرحِ المدرس .

فقال الصبىُّ فى فصاحةٍ ولباقةٍ وثقة :

ـــ إن العدلَ عندى هو رعايةُ أبنائِك المتمسكين بأهدابِ ولائِهم لك .

أصغى ناظرُ المعارف ، واستمعَ إلى الشكوى ، وكان قد عجِلَ ، وقرَّرَ تعديلَ نظامِ الامتحان .

ازداد الصبىُّ اعتزازاً بنفسِه ، وتجسدتْ أمام عينيه صفاتُه التى تميزَ بها ، من الشجاعةِ ، وسرعةِ البديهة ، وسلامةِ المنطقِ ، وذلاقةِ اللسان ،

والقدرةِ على عرضِ الفكرةِ والرأى ، وتأييدِهما بالحجةِ المقنعة ، ومن الإيمانِ بما له وما لغيرِه من حقوق ، والشعورِ بواجب الانتصارِ لها ، والدفاعِ عنها ..

وخطا خطوةً جديدة ، نقلته من زعامةِ زملائِه فى المدرسة إلى زعامةِ أبناءِ حيِّه المثقفين ، ومن الكفاح لرفع الظلمِ عن زملائِه إلى الكفاحِ لرفع الظلم عن وطنِه ، فقد أسَّسَ وهو فى الخامسة عشرةَ من عمره « جمعية الصليبة » ، وحدَّدَ هدفها الأساسيَّ فى « تخليص مصرَ من ربقةِ[1] الاستعمار » ، وجدَّ فى الدعوةِ لها ، واجتذابِ الشبابِ المثقفين للانضمام إلى عضويتها ، وسرعان ما اشتهرَ أمرُها ، وتزايد ارتباطُها يوماً بعدَ يوم بالجمعيات الأخرى ، وحَفلَتْ بالنشاطِ الوطنىِّ والاجتماعىِّ والثقافىِّ ، وزارها الشاعرُ ، والكاتبُ ، والصَّحَفِىُّ ، والسياسىُّ ، وعُقِدَت فيها الندواتُ ، وألقيت المحاضرات ، وكان الصبىُّ الذى زحف نحوَ مرحلة الشباب هو محورَ النشاطِ فيها ، ومحركَه ، والدافعَ إلى حيويتِه واستمراره ، بكلماته ، وخطبِه ، وآرائِه .. وقد كانت هذه الجمعيةُ منارَةً للشبابِ الوطنىِّ المثقفِ من ناحية ، ودافعاً قوياً له إلى أن يستزيدَ من القراءةِ والاطلاعِ والاستماعِ ؛ حتى يكون جديراً بلقاء ذوى الرأى والفكر ممن يزورون الجمعية ، ويتحدثون أو يحاضرون فيها ، وكان فيهم شخصياتٌ بارزةٌ لها وزنُها فى المجتمع .. ولا شكَّ أن هذه « الجمعيةَ » أفادته كثيراً فى تفكيرِه ، وخطابتِه ، وكتابتِه .

---

(١) ربقة : حبل فيه عروة تشد به البهيمة .

وحدث أن زار « على باشا مبارك » ناظرُ المعارفِ مدرستَه ، وهو فى أخرياتِ دراسته الثانوية ، وسأله عما ينوى أن يكونَ فى غدِه ، فكانت إجابتُه أشبهَ بخطبةٍ قصيرةٍ مرتجلة(١) ، قال فيها :

« إن أعظمَ الرجال شأناً من يحرِّرُ بلاده ، وينقِذُ أمّتَه من ربقةِ الذل والاسترقاق ، وأنا أطمع أن أكونَ ذلك المحررَ الذى يكتبُ ويخطبُ ويجاهدُ فى سبيلِ تحرير وطنِه من الذل » .

وأصغَى الوزيرُ بين الدهشةِ الشديدةِ ، والإعجاب البالغ ، وأطلق عليه لقبَ : « امرِئِ القيْس » .. ولو أمعنَ ، لأطلق عليه لقبَ : « الزعيم المنتظر » ؛ فقد بدأت مواهبُه وقدراتُه تبشرُ بذلك .

* * *

ودخل الشاب مدرسةَ « الحقوق المصرية » ، ثم تحوَّل عنها إلى مدرسةِ « الحقوق الفرنسية » ، وكان من الطبيعيِّ أن يدخلَ مدرسةَ الحقوق ؛ لأنها — كما يقول — « مدرسةُ الكتابةِ والخطابةِ ومعرفةِ حقوقِ الأفرادِ والأمم » ، كما كان من الطبيعيِّ أن يتحولَ إلى مدرسةِ « الحقوق الفرنسية » ؛ ليتمكنَ من اللغةِ التى يستطيعُ بها الحديثَ إلى الأجانب ، وإقناعَهم بمأساة مصرَ فى ظلِّ الاحتلال ..

وكانَ فى هذه المدرسةِ يجمع بين أنشطةٍ متعددة : نشاطِه الدراسىِّ ، ونشاطِه اللغوىِّ الذى يحرصُ فيه على التمكن من الفرنسيةِ ، والتفوقِ — إلى أقصى ما يستطيع — فى الخطابةِ والكتابةِ بالعربية ، ونشاطِه فى

(١) مرتجلة : لم تُعَد من قبل .

جمعيةِ الصليبة التى كانت أشبهَ بحزبٍ صغير ، ثم نشاطِه فى المجلة التى أصدرها باسم « المدرسة » ، وذلك كلُّه مع نشاطِه فى فَرنسا التى كان يترددُ على جامعاتِها فى نهايةِ كلِّ عام ، لأداءِ الامتحانِ بها ؛ فقد كان يزورُ المتاحفَ ، والمكتباتِ ، ودورَ الصحف ، ويناقشُ من يهتمُّون بأمرِ مصرَ فى قضيتِها التى شغلت عليه عقلَه وقلْبَه .

وأضنته هذه الجهودُ ، فاعتلَّ جسمُه ، وحاولَ علاجَه مرةً بعد مرة ، ولكن نفسَه كانت أقوى من المرضِ ، فلم يستسلم له ، ولم تيئَس ، ولم ترضَ له أن يكفَّ عن نشاطِه .

وخلالَ هذه الفترةِ مات « الخديو توفيق » فى السابع من يناير سنة ١٨٩٢ ، وتولى « عباس » الثانى حكمَ مصر ، وعزلَ وزارةَ «مصطفى فهمى » الموالية للإنجليز ، فوقف « كرومر » المعتمَدُ البريطانى فى وجهه ، ونَشِبَت أزمة[١] حادة ، أراد فيها « كرومر » أن يظلَّ سلطانُه مفروضاً على القصر ، وأراد « عباس » أن يكونَ له حقُّ اختيارِ وزرائه .. وهبَّ مصطفى كامل غاضباً ، متحمساً ، يناصرُ « الخديو » الجديد ، وكان موقفُه موقفَ الجريءِ المخاطر ؛ فقد وقف فى جمعٍ حاشدٍ ، التف به وخطبَ فيه خطبةً ناريّة ، ندَّدَ فيها بالاستعمار وأطماعِه واستعبادِه ، وكان فى هذا الموقف ، على صغَرِ سنه ، زعيماً له مكانتُه فى النفوس ، وقوةُ تأثيرِه على السامعين ، وهو فى السابعةَ عشرةَ من عمره ، ومنذ ذلك

(١) نشبت أزمة : ظهرت واشتد الاشتباك فيها .

الوقتِ عرفه « عباس » الثانى ، وقدَّمه إليه الشيخ « على الليثى » شاعرِ إسماعيل .

ورأى مصطفى كامل أن يستثمرَ هذه الصلةَ لخير مصر ، فيقوّىَ فى « الخديو » الجديد كراهَتَه لغطرسةِ الإنجليز ، ويعتمدَ على نفوذِه فى مقاومتِهم ، وينتفعَ بذلك فى دعم كفاحِه القوىِّ الفتىّ ، وفى هذه الفترة صدرَ له كتابٌ بعنوان « أعجب ما كان من الرق فى الرومان » كشف فيه أبشعَ صور الاستعباد .



مصطفى كامل ، وقد وقف يخطب أمام جمع حاشد من الشباب

(٤)

أهدافه من كفاحه الوطنى وطريقه إليه

ظفِر مصطفى كامل بشهادةِ الحقوق الفرنسية مع أواخرِ سنة ١٨٩٤ ، وقد أدركه الامتحانُ فيها وهو بينَ مرضٍ شديدٍ بالحمى ، وحزنٍ مرير لموتِ أخيه لأبيه الدكتور عبد الفتاح فتحى ، ونصحَ له الأطباءُ أن يؤجِّلَ هذا الامتحان ، ولكنه أبى ، ورَعتْه عنايةُ الله تعالى ، فاجتازَه بنجاح ، وزادَ فألَّف تمثيليَّةً من خمسةِ فصول ، بعنوان « فتح الأندلس » ، تُسجِّل بطولةَ الفاتحين ، وضياعَ المتخاذلين .

ورجع الزعيمُ الشابُّ ؛ ليستأنفَ كفاحَه فى جوٍّ مسمَّمٍ ، خانقٍ ؛ فالإنجليزُ يحتلُّون مصر ، ويسيطرون على الوزاراتِ فيها ، يولون رياستَها من يشاءون ، ويعزِلون عنها من يشاءون ، ويُقِيمون على مؤسساتِها الحيويةِ موظفين منهم ، يسيطرونَ عليها ، ويُوجِّهونها لمنافعِهم الذاتية ، وقد جدُّوا فى إضعافِ كلِّ ناحيةٍ توهَّمُوا فيها خيراً لها .

حاربوا الحريةَ ، فكمَّموا الأفواه ؛ حتى لا يرتفع صوتُها بالسُّخطِ عليهم ، وأفسدوا التعليم ؛ بما أغلقوا من المدارس ، وما شوَّهوا من المناهج ، وما مسخُوا من تاريخ العظماء ، وما قضوا عليه من قوةِ الجَيش بعد أن هبطوا بعدده إلى عشَرَة آلاف ، يرأَسُهم ضباطٌ منهم ، وحمَّلوا الخِزانة

المرهقَةَ[١] بالديونِ الأُجنبية نفقاتِ جيشِ الاحتلال ... و « الخديو » بين أمرين : إما أن يخضعَ لهم خضوعاً تامًّا كما خضع « توفيق » ، أو يستعدَّ لحربهم ومؤامراتهم التى لا تفتُر ، وأعيانُ البلادِ وأصحابُ الثراءِ فيها يجاملونَهم حِرصاً على مصالحهم ، والفلاحون والعمال ــ وهم أكثر أبناءِ البلاد عدداً ــ يعيشون فى ظلامِ الجهل والفقر والمرض .

فى وسطِ هذا الجوِّ الذى يغشاهُ[٢] الركود واليأس عاد مصطفى كامل ؛ ليتابع جهادَه الذى بدأه منذ كان فى الخامسةَ عشرةَ من عمره .. فلم يفكرْ قطُّ فى وظيفةٍ أو منصبٍ أو مكتبٍ للمحاماة ... لقد كان يحبُّ مصر ، ويحسُّ ما تعانى من الاستعبادِ والظلمِ والآلام ، وبلغ به حبُّه لحريتِها درجةَ العقيدة المقدسةِ ، وكان يقول فى ذلك :

« سأبقى حتى الممات حاملا لواءَ الاستقلال ؛ إذْ أجدُ حياتى فى هذه العقيدة » .

وتقدمَ لمتابعةِ كفاحه ، وقد منحه وقتَه وجهدَه وكلَّ ما يملك ، وحدَّدَ أهدافَه منه ، ورسم طريقَه إليه ... كانت أهدافُه فى هذا الكفاحِ تتركزُ فى أن تتحقَّقَ لمصرَ حريتُها ، وتُحْكَمَ بأيدى أبنائها لا بأيدى الأجانب ، وتنعمَ بدستورٍ صحيحٍ ينظمُ حقوقَ أبنائِها وواجباتِهم ، ويتاحَ[٣] لها به الجوُّ الذى تستطيعُ فيه أن تعملَ ؛ لكى ترقَى بحياتِها ، وتُصلِحَ ما أفسده الاحتلالُ الآثمُ من أمورها .

وكان يرى أن الطريقَ إلى هذه الأهدافِ يتمثلُ فى بعثِ المصريين من

---

(١) المرهقة : المثقلة المتعبة . (٢) يغشاه : يخالطه ويغطيه . (٣) يتاح : يتهيأ .

جديد ، وانتشالِهم من حالةِ اليأسِ والركود التى انتهوا إليها بعد ضربةِ الاحتلال الأجنبى لثورةِ الزعيمِ الفلاح أحمد عرابى ، كما كان يرى أن ذلك لا يتمُّ إلا بجهدٍ دائبٍ جبار ، يتجنبُ أخطاءَ « عرابى » ، وينجحُ فى تحقيقِ هذا البعث ؛ ولهذا تركزت حولَه أحاديثُه ومقالاتُه ، وخطبُه وندواتُه ومحاضراتُه ، وكان شغلَه الشاغل فى حِلّه وتَرْحاله ، وفى يَقَظتِه ومنامه ، وفى كلِّ ما يمارسُ من ألوانِ نشاطِه ، واتجه هذا الجهدُ على مدى حياتِه إلى النواحى الآتية :

— انتزاعِ عواملِ اليأسِ من نفوس اليائسين ، وهواجسِ الخوف من عقول الخائفين ، ودوافعِ الجشعِ فى قلوب الجَشِعين الذين يعيشُون لأنفسِهم ولا يُحِسُّون آلامَ الفقراء البائسين ، ومن كلماته فى ذلك :

« لا معنى للحياةِ مع اليأس ، ولا معنى لليأسِ مع الحياة » .

« الدسائسُ لا تخيفنا ، والتهديداتُ لا توقفنا فى طريقنا ، والشتائمُ لا تؤثِّر فينا ، والخياناتُ لا تزعجنا ، والموتُ نفسُه لا يحول بيننا وبين هذه الغايةِ التى تصغرُ بجانبها كلُّ غاية » .

« إن الفقراءَ هم قوةُ الأمة ، وساعدُها فى العمل ، وهم الذين يحملون الأغنياءَ على أكتافهم ، فإذا أخلُّوا بهم[1] أسقطوهم إلى أسفلِ سافلين » .

— تعميق الوطنيةِ فى القلوب ؛ بتوضيح عظمةِ مصر وعراقتِها وجمالِها ، وبيان ما تقاسِى من آلامٍ وأدواء ، وكثيراً ما صورها مريضةً معَذَّبةً ، تتطلَّع إلى أبنائها ؛ لينقذوها مما ألمَّ بها .. وفى ذلك يقول :

---

(١) أخلوا بهم : تركوهم .

« إن مصرَ جنةُ الدنيا ، وإن شعبَها الذى يسكنُها لأكرمُ الشعوب إذا أعزها ، وأكبرُها جنايةً عليها إذا تسامح فى حقها ، وسلَّم أَزِمَّتَها[1] للأجنبى .

« اذكروا مصرَ ؛ فمن المستحيلِ أن يرى العاقلُ النارَ فى داره ، والداءَ فى شخصِ أمه ، ويهملَ النارَ ، ويهملَ الداء » .

ـــ مقاومةِ الاستعمارِ الإنجليزىِّ ، وكشفِ أقنعتِه الزائفة ، وفضحِ ألاعيبه ؛ حتى يُسقِطَ حُجَجَهُ فى الإقامةِ على أرضِ مصر ، وحتى يصرِفَ عنه مَن يجاملونَه من ذوى المصالح ، ومن يرون مسالمَتَه من المخدوعين بدهائِه ، ولكنه كان يؤْثر المقاومةَ غيرَ المسلحة ؛ خشيةَ أن تُصْدَمَ مصرُ مرةً ثانية ، بعد صدمتِها فى ثورة « عرابى » ، كما كان يؤثِر[2] فى أحاديثِه ومقالاتِه الكلمةَ العفَّةَ البعيدةَ عن السبابِ والبذاءة .. يقول :

« الإنجليزُ يبنون الثُّكُنات على نفقةِ مصر .. يبثُّون موظفيهم فى كل مؤسسات الدولة .. يُسخِّرون نظامَ الحكم ليكونَ فى أيديهم » .

« ليقلبوا نظامَ التعليم ما استطاعوا ، وليحاربوا الناشئينَ كيف أرادوا ؛ فإن رجال الغدِ لن يكونوا إلا مصريينَ وطنيين . لينفقوا الأموالَ ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال لشراءِ الضمائرِ الخربة ؛ فإنهم إن كسَبُوا فردًا واحدًا قام من الوطنيين الصادقين العشراتُ لهدمِ ما يبنون ، ودكِّ ما يقيمون » .

« إنى أترفع عن أن أدافعَ عن بلادى بالطعنِ والسبابِ » .

ـــ إلهاب مشاعرِ العزة والكرامةِ والإباءِ فى النفوس ؛ حتى تدوِّىَ

---

(١) أزمتها : جمع .　　(٢) يؤثر : يفضل .

صرختُها بنداء الحرية ، وتناضلَ فى سبيلِها ، وتحققَ فى ظلِّها ما تنشدُه من تقدمٍ فى مختلِف نواحى الحياة ، وقد كان مصطفى كامل يقدسُ الحريةَ ، ويرى أنها القاعدةُ لكلِّ إصلاحٍ يتطلعُ إليه الشعب ، ومن قوله فى ذلك :

« إن لى روحًا من نورِ الحرية الساطعة ، لا تستطيعُ الحياةَ فى ظُلُماتِ الظلمِ والاستعباد » .

« إذا تمكنت روحُ الوطنية والميولُ الوطنيةُ من كل وطنىٍّ فتحت المدارسُ العلمية ، والصناعية ، والتجاريةُ ، والزراعيةُ فى كلِّ مكان ، وظهرتْ آثارُ النخوةِ[1] والهمةِ والتضامنِ فى كلِّ جهةٍ وناحية ، واتحدت الأمةُ فى الغاياتِ والمقاصد ، وازدادت ثروتُها فى المالِ والعلمِ والوطنية والوئامِ » .

— اعتمادِ الحركةِ الوطنية على أبناءِ مصرَ الأحرارِ الأبرارِ دونَ غيرهم ؛ فقد جرَّب مصطفى كامل الانتفاع بصداقتِه « للخديو » عباس الثانى ، وحاولَ استثمار صلتِه بالسلطانِ فى تركيا ، ورأى الاستعانةَ بفرنسا بلدِ الحرية ، ولكنه خرج من ذلك بحقيقة راسخة ، هى أن حقوقَ الأممِ لا توهَبُ ، وإنما تنتزَعُ بأيدى أبنائِها .. يقول :

« لقد اهتدينا إلى الحقيقةِ التى لا حياةَ لأمةٍ بغيرها ، وهى أن الأممَ لا تنهضُ ، ولا تستردُّ استقلالَها إلا بجهدِها » .

— جمعِ كلمةِ الأمة حولَ هذه الأهدافِ والوسائل ، وقد استجاب

---

(١) النخوة : العظمة .

لها المصريون إلا فئةٌ قليلةٌ ضالَّة ، ولكن استجابةَ الشباب لها كانت أقوى وأظهر ؛ لأنهم كانوا يرَوْنَ أنفسَهم فى الزعيم الشـاب ، ويجدونَ فيه المثلَ الأعلى فى الصدقِ والإخلاصِ والتضحية ... ومن قوله فيهم :

« إن الشبابَ هو أملُ اليوم ، ودعامةُ المستقبل ، وسنرى مصر تنهضُ بهم ، وتتخذُ مركزَها اللائق بها » .

(٥)

مسيرة كفاحه حتى سنة ١٩٠٠

استأنفَ الزعيمُ الشابُّ كفاحَه بعد عودتِه من الامتحانِ فى فرنسا ، وكان عند ذاك يزحف نحو الحاديةِ والعشرين من عمره ، وكان من يسمعُ عنه يظنه رجلا كبيرا ، فإذا ما شاهدَه وجد شاباً نحيلا ، مرهفَ الصحة ، دقيقَ التكوين الجسمى ، ولكنه يملأ العينَ والقلبَ ، بوجهِه الوسيم ، ومظهرِه الجميل الأنيقِ ، وشاربه المديدِ الرقيق ، ونظراتِه المشرقةِ بنور النُّبْلِ والجلال ، وبداهتِه التى تُذْهِلُ من يتحدثُ إليهم بحدَّتِها وسرعتِها ، وفصاحتِه البارعةِ التى تستهوى سامعيه ، وتشدُّهم إليه .

ولم يضيعْ وقتا ؛ فقد أخذت أحاديثُه وندواتُه ومحاضراتُه ، تتوالى فى اجتماعاته بأنصارِه ، وكان فيها يُلقِى الأضواءَ على أهدافِه من الكفاحِ الوطنى ، وعلى طريقِه فيه ، وكلُّهم إعجابٌ بنزاهته ، وعُلوِّ نفسه ، وسُمُوِّ مقاصِدِه ، وبعدِه عن كل شائبةٍ تمسُّ قيادتَه من قربٍ أو بعد .. وكما توالت أحاديثُه وندَواتُـه ومحاضراتُـه فى أنصارِه انهالت مقالاتُـه على الصحفِ اليومية ، وفى مقدمتها « الأهرام » و « المؤيد » ، وكانت أشبه بالسهامِ المسـدَّدَة إلى الاحتلالِ ، وعلى رأسِه فى مصر المعتمَدُ البريطانىُّ « لورد كرومر » .

وبدأ « كرومر » يضيقُ بهذا الشابِّ الذى تعلو كلمتُه ، ويزدادُ رصيدُه البشريُّ يوماً بعدَ يوم ، على حين ينكشفُ خداعُ الإنجليز ، وتفتضحُ خيانةُ أذنابِهم من ذوى الأغراضِ الحقيرة . وليس من شكٍّ أنهم كانوا يريدون إسكاتَه وإخمادَ حركته ، ولكن كان « الخديو » عباس الثانى يشجعُ موقفَه منهم ؛ لغطرستِهم ، واعتدائِهم على سلطتِه فى اختيارِ الوزراء الذين يريدُهم ، وفى غير ذلك من نواحِى السياسةِ والحكم .

وأحبَّ « الزعيمُ » أن يفسدَ ما بين « كرومر » والوزراءِ الذين يجاملونه على حسابِ مصر ، فنقل عن أخى « كرومر » حديثاً جارحاً لهؤلاء الوزراء ، قال فيه :

« إنهم لا يهُمُّهُم إلا قبضُ رواتِبهم ، وبقاؤُهم فى أعلَى المناصب ، وإنهم لا يخافُون الإنجليزَ فحسب ، بل يقدِّسُونهم من صغيرِهم إلى كبيرِهم ، خوفاً من السقوطِ والعزلِ » .

ونشرَ الزعيمُ هذا الحديث فى أهرامِ الثامن والعشرين من يناير سنة ١٨٩٥ ، فاشتدَّ سخطُ « كرومر » عليه ، واشتدَّ سخطُ الشعب على « كرومر » ، كما اشتدَّ خجلُ هؤلاء الوزراء ، وأحسُّوا صغر منزلتِهم وهوانَهم فى عيونِ الناس .

ومرت الأيام سراعاً ، و « الخديو » يتقلب بين الوطنيين والإنجليز ، فيدير إلى هؤلاءِ وجهَه مرةً ، ويدير إلى أولئك وجهَه مرةً أخرى ، وأخيراً انحاز إلى « كرومر » ، وصار يجاملُه ويداريه ، ودَهِش مصطفى كامل حين رأى هذا الرجلَ الذى تظاهرَ بالشموخ والكبرياء أمام الإنجليز يعود

فينحنى لهم ويتصاغرُ أمامهم ، فسارعَ الزعيمُ الشابُّ بالسفرِ إلى فرنسا التى عرفَها ، وتردَّدَ عليها ، وكوَّن بعضَ الصداقات بها ، وأحبَّ أن يجدَ فيها منابرَ حرةً ، تنشُرُ دعوتَه فى أوربةَ ، وتثير الأحرارَ للدفاعِ عنها .. واصطحب فى رحلته الوثائقَ التى تعينُه على إقناعِ الفرنسيين وغيرِهم بعدالةِ قضيةِ مصر ، وظلمِ الاحتلالِ الإنجليزى وعدوانِه الغاشم[1] الأثيم .

وفى الخامس من يونية سنة ١٨٩٥ قَدَّم إلى مجلس النواب الفَرَنسىِّ لوحةً ، فيها صورةُ سيدةٍ فَرَنسية ، تمدُّ يدَها ، لتتسلم « عريضةً » من شابٍّ مصرى ، يقدمُ شكوى بلادِه من الاحتلالِ الإنجليزى ، وعن جانبها صورةُ أفراد يمثلون شعبَ مصر بمن فيه،من شيخ ، وقسيسٍ ، وفلاحٍ ، ووطنىٍّ ، وأجنبى ، وعن جانبها الآخر صورةٌ تمثلُ الشعوبَ التى حررتها فرنسا ، وفى قمةِ اللوحة هذه العبارة « نداءٌ إلى فرنسا محررةِ الشعوب » ، وقدمَ اللوحةَ بخطاب منه إلى رئيسِ هذا المجلسِ ، جاء فيه :

« أتشرفُ وأنا فى ثورةِ الانفعال أن أقدِّمَ إلى مجلسِ النواب الفرنسىِّ الذى أنت له نِعْمَ الرئيسُ هذه اللوحةَ التى تمثلُ مصرَ طالبةً من فرنسا أن تكونَ خيرَ عَضُدٍ يساعدُها على استرجاعِ حريتِها واستقلالِها » .

اشتهر أمرُ اللوحة ، وتناولتها الأحاديثُ فى المجلس وخارجَه ، ونشرت الصحفُ نبأَها ، وعلقت عليها ، وكان لها صداها بين الساسةِ الفَرَنسيين الذين يعرفون جشعَ الاستعمارِ الإنجليزى وخداعَه ودهاءَه ، وما كان له من حججٍ كاذبةٍ ماكرةٍ فى احتلال مصر .

---

(١) الغاشم : الظالم .

ومد الزعيم نشاطَه ، فسافر إلى ألمانيا ، ونشرت بعضُ الصحفِ فى « برلين » أحاديثَه ، وعاد إلى جامعةِ « تولون » التى نال شهادةَ الحقوق الفرنسيةَ منها ، وألقى فى كليةِ الآدابِ بها خطاباً سياسياً نارياً فى الرابع من يولية سنة ١٨٩٥ ، شرح فيه خداعَ الإنجليز وعدوانَهم وحكمَهم الاستبدادىَّ ، ولم يكتفِ بذلك ، بل سافر إلى « ڤينا » ؛ ليدعوَ فيها لبلاده .. وأرهقته الأسفارُ ، ونالت من جسمِه الضعيف ، ولكن عزيمتَه كانت لا تعرفُ اليأس .

وبينما هو فى نشاطِه الذى لا يَفْتُرُ علم بانحيازِ « الخديو » عباس الثانى علناً إلى « كرومر » ، وأنه عبَّر عن هذا الانحياز بوقوفه تحت العلَم البريطانى فى استعراضِ الجيشِ الإنجليزىِّ بميدان عابدين فى الحادىَ عشر من سبتمبر سنة ١٨٩٥

لم يهتز مصطفى كامل ، ولم تداخلْ قلبه شائبةٌ من يأس ، بل انطلق يدعو لوطنه فى فرنسا وإنجلترا ، وينطلق فى سبيلِ هذه الدعوةِ إلى « بودابست » ثم « تركيا » .

ولم تكن هذه الرحلات هينةً عليه ، ولم يكن طريقُها مفروشا بالورود ، كما أنها لم تكن سهلة على الإنجليز ؛ فقد أفزعتهم ، ونقلت القضيةَ المصريةَ من دائرةِ الظلامِ إلى دائرةِ الضوءِ الساطِع المتوهِّج .. وشجَّعه ذلك على أن يؤلِّفَ كتاباً عن « المسألة الشرقية » ، وفى هذا الكتاب قرر أن استتبابَ السلامِ فى العالم يتوقفُ على مقاومةِ أوربة لأطماعِ الإنجليزِ فى الشرق ، ووضعِ حدٍّ لعبثِها به وببلاده .. وظهرَ هذا

الكتابُ فى الثالث والعشرين من أبريل سنة ١٨٩٨

وما لبِثَت ثقتُه فى فرنسا أن اهتزت هِزَّةً عنيفة ؛ فقد اتفقت مع انجلترا على مصر ، وتعهدتْ سنةَ ١٨٩٩ ، أن تتركَها لها ، ولا تتدخلَ فيما يصنعُ الاحتلالُ الإنجليزىُّ على أن تستقلَّ ببعضِ البلادِ الأخرى .

عندئذ أدركَ الزعيمُ أن الاستعمارَ هو الاستعمار ، وأن فرنسا كإنجلترا ، واستقرت فى نفسه فكرةٌ واضحة ، هى : « أن الحريةَ إذا لم يحقِّقْها أبناءُ الوطن بأيديهم فلن يحققَها لهم أحد » .

وكان قد عرفَ مدام « چوليت آدم » ، واطلعَ على المجلة الفرنسية التى ترأسها ، ورأى فيها نزعةَ الحرية ، ومقاومةَ الظلم ، فوَثَّق صلتَه بها ، واتخذ منها أمًّا ، ومستشاراً ، ومدافعاً عن مطالبه ، ومن كلماته لها :

« إن جِراحاتِ الوطنيةِ تسيل منها الدماءُ بغزارة ، وإنى فى حاجةٍ إلى وجودى بجانب القلب الذى يحبُّنى ، ويفهمُنى ، ويمدُّنى بحيويته » .

كما اتخذت منه ابناً باراً ، رائعَ النبوغِ والإخلاصِ والوطنية ، وظلَّت — على مدى حياته — تدافعُ عن بلادِ ابنِها ، وتنادى بحريتِها .



مصطفى كامل ، وهو فى نحو الرابعة والعشرين
أمام مكتب يؤلف كتابا عن المسألة الشرقية

(٦)

كفاحه فى الشطر الأخير من حياته

نقل مصطفى كامل نشاطَه إلى مصر ، فأصدرَ جريدةَ « اللواء » ، وكان فيها ، كما يقول العقاد : « شعلةً ملتهبةً من الوطنيةِ الخالصة ، جياشَ[١] القلمِ بحقِّ الوطنِ فى الخلاصِ من الاحتلالِ ، وسُرعانَ ما التفَّ حوله شبابُ البلاد ، وأحبُّوه ، وظاهروه[٢] ، وناصروه » .. وصدر العددُ الأول من هذه الجريدة فى الثانى من يناير سنة ١٩٠٠

وأصبح له ـــ مع صدور هذه الجريدة ـــ مرتكَزٌ قوىٌّ صُلبٌ للدعوةِ الوطنية ، يوضِّحُ أهدافَها ، ويحدِّدُ طريقَها ، ويفنِّدُ أكاذيبَ خصومِها ، ويكشفُ دسائسَهم ومؤامراتِهم ، ولا يدعُ فرصةً تمر به دون أن يكسِبَ فيها مزيداً من الثقةِ والأمل ، ومن الذيوعِ والانتشار ، ومن النجاحِ والانتصار .

وظل يكافح ، لا يهدأُ ولا يهادنُ أو يتخاذل ؛ حتى ارتاع « كرومر » ، مع طغيانِه وجبروتِه ، واهتز أذنابُه هِزَّةً أقوى وأعنف ، كما اهتزت أمامه البقيةُ الباقيةُ من أنصارِ « عباس » الثانى ، وفى مقدمتِهم الشيخ علِى يوسف ، وفريقُه من أصحابِ جريدة « المؤيد » ، وشهِدَ التاريخُ أن الزعيمَ كان

---

(١) جياشَ القلم : ملتهباً ، نارىَّ الكتابة .	(٢) ظاهروه : ناصروه .

أعلى صوتاً ، وأكثرَ أنصاراً ، وأن دعوتَه تحوَّلَتْ دعوةً جماهيرية ، تعبِّر عن آمالِ الشعبِ بكل فئاتِه وطوائفِه . وكانت هذه الدعوةُ فى ذلك الحينِ تتجهُ فى طريقين : المطالبةِ بالحريةِ والاستقلال ، والمناداةِ بالإصلاح الداخلىِّ ، ورصدِ الجهودِ الذاتيةِ لبناء المدارسِ ، والمعاهدِ ، وإنشاءِ جامعةٍ أهلية ، تُعِدُّ أبناءَ الشعبِ لتحريرِه ، وتحقيقِ آمالِه ... ونجحَتْ هذه الجهودُ ، وحقَّقَتْ الكثيرَ من أهدافِها ..

وفى الثالثَ عشرَ من يونية سنة ١٩٠٦ وقعت أحداث « دنشواى » .. كان خمسةٌ من الضباطِ الإنجليزِ فى طريقِهم من الإسكندريةِ إلى القاهرة ، وعنَّ لهم أن يُعَرِّجُوا على قرية « دنشواى » بمديريةِ المنوفية ، ليمتعوا أنفسَهم بصيدِ الحمام المنتشرِ فى أجرانِ القمح بها ، وأعجَبَ منظرُ الحَمام المنتشرِ على جرن مؤذن القرية أحدَهم ، فأطلقَ عليه رصاصَ بندقيته ، فأصابَ زوجةَ المؤذِّنِ .. فالتفَّ الفلاحون به يتصايحون « الخواجة قتل المرأة » ، واشتبكوا بهؤلاء العابثين المستهترين ، ففرّ اثنان منهم ، ولكنَّ أحدَهم سقطَ صريعاً بضربةِ الشمس المتوقِّدة .

وأسرع إلى القريةِ عشرةٌ من الضباطِ الإنجليز ، فصادفوا قتيلَهم وإلى جوارِه فلاحٌ يحاولُ إنعاشَه ، فقتلوه ، ثم اندفعوا يقبِضُون على الفلاحين فى القرية ، وعُقِدَت لمحاكمتهم محكمةٌ عسكرية ، قضت بإعدام أربعة منهم ، وحكمت على اثنين بالأشغال الشاقة لمدة خمسةَ عشَرَ عاما ، وعلى ستةٍ بالسجن لمدة سبع سنوات ، وعلى ثلاثةٍ بالسجن لمدة سنة ، وعلى خمسةٍ بجلدِ كلٍّ منهم خمسينَ جلدة .

ونُفِّذَ الحكمُ على عيونِ الأشهاد ، فى الثامن والعشرين من يونية سنة ١٩٠٦ ، بين عويلِ[1] النساء ، وصراخ الأطفال ، وصَمْتِ الرجال على حزنٍ ومرارةٍ أليمة .

وطارَ الخبرُ إلى مصطفى كامل ، فعلِمَ به فى الرابعَ عشرَ من يولية سنةَ ١٩٠٦ ، وكان فى باريس للاستشفاء ، فنَسِيَ جسمَه الضعيف الذى تجمعت عليه آلام المرض ، وكتب مقالا ناريا فى الهجوم على الإنجليز ، وكان مما ساق فيه :

« جئت أسأل الأمةَ الإنجليزيةَ إذا كان يليقُ بها أن تتركَ المحتلين فى مصرَ يلجئون بعد احتلالِ أربعةَ عشرَ عاما ، إلى قوانينَ استثنائيةٍ ، ووسائلَ عجيبةٍ ؛ ليحكموا مصرَ ، ويعلموها حقيقةَ كرامةِ الإنسانِ » .

وسافر إلى إنجلترا ، وقد سبقه مقالُه إليها ، والتقى برئيس الوزراء بها ، فاعتذر لمصطفى كامل ، وقال : « إنها حادثة مؤسفة ! » ، وبدأ يفكر فى أمر « كرومر » ، وضيقِ مصرَ به وبسياستِه .. ولَمَسَ « كرومر » ذلك ، وأحس أن نهايتَه فى مصر قد اقترَبَتْ ، فاستقال فى أكتوبر سنة ١٩٠٦ ، وأدرك المصريونَ أن ما زعمَه من الاستقالةِ كان تمويهاً ، وأنه تركَ مصرَ طريداً ، ولم يَقْوَ على تحمُّل الضرباتِ العنيفة التى وجَّهها إليه مصطفى كامل .. وانزاح عن مصرَ بطردِه كابوسٌ ثقيل ، فبلغ حبُّها لهذا الزعيمِ المكافحِ البارِّ غايتَه ، ولكنها كانت مرتاعةً لمرضه الذى يزدادُ يوماً بعد يوم .

* * *

(١) عويل : العويل ، البكاء بصوت عال .



تنفيذ حكم الإعدام فى أربعة من أهالى قرية دنشواى

أحس الزعيمُ أن الداءَ يسرى فى جسدِه ، فسارعَ بالعودةِ إلى مصرَ فى أكتوبر سنة ١٩٠٧ ، واحتشدت الجماهيرُ فى الإسكندريةِ لتستقبله ، وترحبَ بمقدمِه .. وبين الجموعِ الغفيرةِ ألقَى خطبةً رائعةً ، قال فيها :

« إن العاملَ الواثقَ بالنجاحِ يرى النجاحَ أمامَه كأنه أمرٌ واقع ، ونحنُ نرى من الآن هذا الاستقلالَ المصرىَّ ، ونبتهجُ به ، وندعو له كأنه حقيقةٌ ثابتةٌ ، وسيَكونُ كذلك لا محالةَ(١) ، فمهما تعددت الليالى ، وتعاقبت الأيام ، وأتى بعد الشروقِ شروقٌ ، وأتى بعد الغروبِ غروبٌ ، فإننا لا نملُّ ، ولا نقفُ فى الطريق ، ولا نقولُ أبداً : لقد طال الانتظار .

كونوا أسعدَ حظاً منا ، وليبارك الله فيكم ، ويجعل الفوزَ على أيديكم ، ويُخْرجْ من الجماهيرِ المئاتِ والألوفَ بدل الآحاد ، للمطالبةِ بالحقِّ الوطنى ، والحريةِ القوميةِ ، والاستقلال المقدَّس .

بلادى ! بلادى ! لك حبى وفؤادى ، لك حياتى ووجودى ، لك دمى ونفسى ، لك عقلى ولسانى ، لك لُبِّى وجنانى(٢) ؛ فأنت أنت الحياةُ ، ولا حياةَ إلا بك يا مصر » .

وفى هذا الجوِّ ، وبينَ آلام المرض ، ودسائسِ الاستعمار أنشأ إلى جانب اللواء بالعربية ، صحيفتين : إحداهما بالفَرَنْسية ، والأخرى بالإنجليزية ، ليوسِّعَ نطاقَ الدعوةِ لوطنِه بين أوساطِ القراء باللغاتِ الثلاث : العربية والفَرَنسية والإنجليزية .

وأحسَّ شيئاً من الراحةِ مع آلام المرض ، والجرائدُ الثلاثُ تدوِّى بدعوته بين المصريين والأجانبِ ، فى مصرَ وخارجَ مصر ، ولكنها راحة لم تطل .

---

(١) لا محالة : لا جدال .　　(٢) لبى وَجنانى : عقلى وقلبى .

(٧)

وفاة مصطفى كامل

اشتدَّ به المرض ، والتمس له علاجاً ، ولكن جهودَه الجبارة كانت تقفُ فى سبيلِ كلِّ علاج ، وأحسَّ أن منيتَه قد اقتربت ، وأن صحتَه المرهفةَ أصبحت أضعفَ من أن تستجيبَ لنشاطِه الجبار ، أو تساعدَه على السهرِ والسفرِ والرحلة ، والكتابةِ والخطابة ، فرأى أن يسارعَ بإنشاءِ حزبٍ برياسته ، يحملُ الشعلةَ بعدَه ، حتى تظلَّ متوهجةً ، ولا يخبوَ(١) لهيبُها .. فأنشأ الحزبَ الوطنى ، وعُقِدَت أولُ جمعيةٍ عمومية له فى السابع والعشرين من ديسمبر سنة ١٩٠٧ بدار جريدةِ « اللواء » .

ورأس مصطفى كامل هذه الجمعيةَ بوجهه الشاحب ، وجسمه المتهافت ، وقال فى تحديد سياسة حزبه :

« إننا لسنا حزباً للسياسة وحدها ، بل نحن حزبُ حياةٍ للأمة وإنهاضٍ لها . حزبُنا يرمى إلى الاستقلالِ أُسِّ كل سعادة ، ويعمل لنشرِ التعليم حتى لا يظلَّ مصرىٌّ جاهلا تحتَ سماءِ مصر ، ويسعى للوفاقِ بينَ الأمة .. ويقرِّبُ المسافةَ بينها وبينَ الشعوب الأخرى . حزبُنا يرمى ـــ قبلَ كلِّ شيءٍ ـــ إلى أن يكونَ المصرىُّ إنسانًا بكل معانى الكلمة ، ولا أقصدُ المصرىَّ ذلك الذى نراه فى المدائِنِ يجدُّ ويعمل ، وإنما أقصِدُه ، وأقصِدُ

(١) لا يخبو : لا يخفت .

معه بنوعٍ خاص ذلك الفلاحَ الذى قضَى القرونَ من السنين ، وهو يعتقدُ أنه مِلْكٌ للحاكم ، ومتاعٌ لا إرادةَ له ؛ فأسمى عملٍ نقومُ به هو إنهاضُ ذلك الفلاحِ العزيز وإعلاءُ مكانتِه .. » .

وكان إنشاءُ هذا الحزبِ آخرَ عملٍ كبيرٍ له ؛ فقد لَزِم الفراشَ ثلاثةَ أشهر ، ولكن سريرَ المرضِ لم يحبسْ فكره ، ولم يعزِلْه عن أحداثِ وطنِه ، فظلَّ يفكرُ ، ويوجِّه ، وينصَح ، ويكتُب ، وأرسلَ قبل أن يلفِظَ أنفاسَه الأخيرةَ بخمسةِ أيامٍ برقيةَ احتجاج إلى رئيسِ وزراءِ انجلترا ، يندِّدُ به فيها ؛ لما زعمَه من أن المصريين لا يصلُحُون لحكمِ أنفسِهم بأنفسِهم .

وفى يومِ الإثنين العاشرِ من فبراير سنة ١٩٠٨ ، وفى الساعة الرابعةِ من مساءِ ذلك اليومِ لبَّت روحُه نداءَ ربِّها(١) ، وكان موتُه حدثاً وطنياً هزَّ مصرَ كلَّها ، وشاركَ فيه الشابُّ والشيخُ ، والرجلُ والمرأةُ ، والمثقفُ والجاهلُ ، ونعَتْه الصحفُ ، ورثاه الشعراءُ والكتابُ والخطباءُ ، وتركت المدارسُ والمعاهدُ عملَها لتشاركَ فى تشييع جنازته من بيتِه على مقرَبةٍ من دارِ اللواء إلى مدفنِ الإمام الشافعى .

ودُفِنَ فى الحادىَ عشرَ من فبراير ، فى القبرِ الذى كان قد بناه لأمِّه ، ورثاه على القبر شاعرُ النيل حافظ إبراهيم . قال :

أيا قبرُ ! هذا الضيفُ آمالُ أمةٍ ... فكبِّرْ وهلِّلْ والْقَ ضيفَكَ جاثِيا(٢)

عزيز علينا أن نرى فيك مصطفى ... شهيدَ العلا فى زهرة العمر ذاويا(٣)

أجل أيها الداعى إلى الخير إننا ... على العهد ما دمنا ، فنم أنت هانيا

---

(١) لبت روحه نداء ربها : صعدت إلى خالقها .

(٢) جاثيا : خاشعا راكعا . (٣) ذاويا : ذابلا .

ولم تنسه مصرُ ؛ فقد جمع أبناؤُها المالَ لإنشاءِ تِمثالٍ له ، وصُنِعَ هذا التمثال فى باريس سنة ١٩١٠ ، ونُقِلَ إلى القاهرةِ سنة ١٩١٤

وأحبَّ أنصارُه إقامتَه فى ميدانٍ من الميادينِ البارزةِ ، فعارضَ الإنجليز ، وتلكأت الحكوماتُ المواليةُ لهم ، وظلَّ التمثال حبيساً بالمدرسة التى عرفت باسمه ، ومرّت به ستٌّ وعشرون سنة وهو سجين بها ، ثم أُقِيمَ فى الميدانِ المعروف باسمه فى القاهرة .

وزادت الأمةُ فى هذا التكريمِ ، فأُعِدَّ له مدفنٌ فى القلعةِ يليق به ، نُقِلَ إليه سنة ١٩٤٩ .. ولكن التكريمَ الحقيقىَّ له تجسَّدَ فى وفاءِ مصرَ كلِّها لمبادئه ، فقد ظلت هذه المبادئ حيةً متوهجةً ، تنتظرُ من يحملُ شعلتَها ، وينطلقُ بها ، وظهر أثرُها فى ثورةِ سنة ١٩١٩ ، وعبَّر عن ذلك زعيم هذه الثورةِ ، سعد زغلول فى صراحةٍ وصدق ، فقال عن ثورته :

« لستُ خالقَ هذه النهضة ! إنما نهضتُكم قديمةٌ ، للحركةِ العرابيةِ فضلٌ فيها وكذلك للسيدِ جمال الدين الأفغانى وأتباعِه وتلاميذِه أثرٌ كبير ، وللمرحوم مصطفى كامل باشا فضلٌ غزير فيها أيضًا ، وكذلك المرحوم محمد فريد بك ، ثم أتت النهضةُ على أثرِ تلك النهضات » .

وكما حرك لهيبُ حركتِه ثورةَ سنة ١٩١٩ ، حرَّك ما بعدَها من انتفاضاتٍ وثوراتٍ وطنية ، ظهرت ثمارُها فى الثامنَ عشرَ من يونية سنة ١٩٥٦ ، حين تم الجلاءُ ، وخرج آخرُ جندىٍّ انجليزىٍّ من مصر .

* * *

ختام فى كلمات

تقدمت خلاصةٌ موجزةٌ ، شديدةُ التركيز ، عن حياةِ الزعيمِ الوطنىِّ الشابِّ مصطفى كامل ، ولكنها مع إيجازِها وتركيزِها ترسُمُ لنا ملامحَ نفسِه وشخصيته ، وتعرضُ لنا صورةً من كفاحِه الرائعِ النبيل ، وتُقَدِّمُ لنا دروسًا متعدِّدة من مسيرةِ هذا النضالِ ، لعل من أهمها :

ـــ أنه استطاعَ أن يشُقَّ طريقه فى حياةٍ مليئةٍ بأحدِّ الأشواكِ ، وأعنفِ العقبات ، ويبلغَ أعلى مراتبِها فى عهدِه ، بجِدِّه الفائق الذى لا يعرفُ المستحيل ، وحرصِه العنيدِ على التحدِّى ، وعلى تعويضِ ما فاتَه من بسطةِ الجسمِ ، ومتانةِ التكوين .

ـــ وأنه كان رائعاً أشدَّ الروعة فى صعودِه ورقيِّه .. كان لا يصعَدُ من درجةٍ إلى درجة ، ولكنه كان يطفُرُ بسرعةٍ مذهلةٍ ، حتى إن أحداً فى عصره لم يستطع أن يرقَى رُقِيَّه ، أو يصلَ إلى ما وصلَ إليه من قمةٍ عاليةٍ رفيعة ؛ ففى أوائل سنة ١٨٨٣ كان تلميذاً صغيرا ، يذهبُ مع أترابِه ومَن هم أكبرُ منه سنًّا إلى مدرسة « أم عباس » ، وبعد ستِّ سنوات كان يرأس « جمعية الصليبية » ، ويتزعَّمُ أعضاءَها فى المناداة بحقِّ مصرَ فى الحرية ، والتخلصِ من ربقة الاحتلال الأجنبى ، وبعد نحو خمسِ سنوات ، وفى الحاديةِ والعشرين من عمرِه امتدت زعامتُه ، لتشملَ شيئا فشيئا أبناءَ وطنِه جميعا .

ـــ وأنه الزعيمُ الذى عشِقَ مصر ، وجعلَ من عشْقِها عقيدةً يعتنِقُها بعد عقيدتِه الدينية ، ويتخذُ منها لحناً ، يتغنَّى بها ، ويعيشُ لها ، ويمنحُها كلَّ ما يملك .. منحها وقته ، فكان يعمل لها فى نهارِه ، ويحلُمُ بها فى ليله ، ومنحها طاقتَه الجبارة ، فجعلَ كلَّ لحظة من لحظاتِ كفاحِه فى سبيلها مليئةً ، بجهدٍ تنوءُ[1] به أشدُّ الطاقاتِ قوةً واقتدارا ، ومنحها صحتَه فحرَّم على نفسِه الراحةَ والهدوءَ وأسبابَ الدعة ، ومنحها حياتَه ، فكان فى أخرياتِها يعرفُ أنها تمضى سريعاً نحو نهايتِها ، ومع ذلك كان يدع سرير مرضِه ليعاودَ النضالَ ، وهو ضعيفٌ واهنٌ مرتعد .

ـــ وأنه الرائدُ الذى عَمَّرَ نفسَه بالأمل والعيونُ من حوله لا ترى ما يراه ، وقهرَ كلَّ عواملِ اليأسِ التى أحاطت به من كلِّ ناحية . قهر خواطرَ اليأسِ التى كانت تُخالجه من حين إلى حين حول صحته المتهَافِتة ، وأزاحَه عن القلوبِ المرتجفةِ خوفاً من الإنجليز ، ومن الحكوماتِ التى أتَوْا بها لتطوعَ الشعبَ بالقوة لهم ، وتسخرَه لأغراضهم ، وبدد سحبَه عن العقولِ التى آثرت السلامة ، وأرادت العيشَ بأيةِ صورة ، وسواء أكان فى نورِ الحرية أم فى ظلامِ الاستعباد ، ونفضه عن النفوسِ التى ذلَّت تحتَ وطأةِ الصدمةِ التى أصابت ثورةَ الزعيمِ الفلاح أحمد عرابى .. حرر مصطفى كامل هذه الأفئدةَ والعقولَ من اليأس ، وبعثَ فيها الأمل ، وأعادَ إليها حيويتَها وحماستَها .

(١) تنوء به : تعجز عن تحمله .

ـــ وأنه القائدُ الشعبيُّ الذى زلزلَ أكبر القوى المناهضةِ له .. زلزل الإنجليز ، حتى انحنى له رئيسُ وزرائهم معتذراً عما حدث فى « دنشواى » ، وهز القصرَ حتى أدرك « عباس » الثانى أنه لا حياةَ له بهم ، كما هزَّ الخونةَ حتى أصبحوا مثارَ الكراهيةِ والسخرية .

ـــ وأنه بحقٍّ باعثُ الحركةِ الوطنيةِ بعد عرابى ، وبانى القاعدةِ الصلبةِ لكل الحركاتِ والثوراتِ التحريريةِ التى أتت بعدَه .. يقول فيه صحفى فرنسي :

« لقد خلق هذا الزعيمُ الوطنىُّ مصرَ الحديثة ، وأيقظ الشبابَ من سباتِه ، بل كهربَه وأبانَ له وجهَه القوميّ ، وكان بعد ذلك كله مثالَ الزعيمِ المكافحِ النقىِّ لكل من ارتادَ طريق الزعامةِ الصادقةِ المخلصة .

* * *

رقم الإيداع : ٨٧/٢٥٠٨
الترقيم الدولى : ٤ - ٠٢٩٧ - ١١ - ٩٧٧

مطبوعات مكتبة مصر

عظماء قهروا اليأس

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقى ـ الفجالة

ت : ٥٩٠٨٩٢٠



الثمن ١٠٠ قرش

دار مصر للطباعة

سعيد جودة السحار وشركاه